

تطور علم التاريخ في العالم الإسلامي

من المقدس إلى الوطنية

تطور علم التاريخ في العالم الإسلامي

من المقدس إلى الوطنية

(بين القرن 01هـ / 07 م و15هـ / الـ 21م)

*د. توفيق بن زردة

المقدمة:

تحليل الجغرافيا التاريخية الأكثر اشهارا لإسلاميتها إلى وجود شرف مشترك، ونبيل معرفي بلغ درجة الارستقراطية في أحد مراحلها، حيث تحقق النضج وتعززت العلوم بفعل تأثيرات الاحترام الاجتماعي، والبنية الذهنية الجماعية الأكثر تحمسا للنمو، التي عاشت في اطار كتلة تراثية واسعة، وسلطة قوية اهتمت بالصناعة التاريخية، لذلك كانت الأرض والسلطة والتاريخ هي الهبات الثلاث الكبرى التي وهبها العالم الإسلامي للإنسانية في العصور الوسطى، لكن حتمية مسيرة التطور البشري، فرخ عوارض زمنية أتت على هذا النموذج الوسيط وحولته إلى أوراق دائمة وجذور متلاشية بفعل القدم، حيث زحفت الترابيات الوطنية في قالب دول عصرية بتنوع اجتماعي-ثقافي كمؤشر على الانتقال من الكل المنصهر إلى الجزء المتنوع.

إن اختيارنا للعالم الإسلامي³⁸¹ في هذه الورقة البحثية ليس تكريسا لجغرافيا على أخرى، أو فضاء على آخر وانما لتتبع تطور علم التاريخ في فضاء رحب، يوفر التنوع والتواصلية التاريخية التي استطاعت أن تعاند الزمن، لذلك يعد هذا النموذج في اعتقادنا قالب جاهز بجزئيات ثقافية وموروثات علمية، تساعد على تتبع الأثر المعرفي التاريخي الذي تغذى من المتغير الزمني، منذ القرن الأول للهجرة (السابع ميلادي) إلى القرن الخامس عشر للهجرة (واحد وعشرون ميلادي).

*جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي- الجزائر toufikbenz@yahoo.fr

381 - هناك دراسات سعت إلى تقديم قراءة جديدة لتاريخ العالم الإسلامي على غرار: عبد العظيم محمود الديب عبد العظيم، نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي، نظرات وتصويبات، دار البشير للنشر والتوزيع، دت

لقد انتقل العالم الإسلامي من قلب الحضارة إلى الضاحية الحضارية، ومن حيز الأرض المختارة والمجتمع الأحادي بشبه الجزيرة العربية، إلى الدولة- الامبراطورية والتعددية الثقافية، ثم إلى الدولة الوطنية، حيث الانسجام الاجتماعي، لذلك فهي تعد تطورات معلمية لمجال انساني عاش تجربة انصهارية وانشطارية، يبدو أن النص التاريخي قد تأثر بها وتفاعل معها باعتباره شاهدا زمنيا وخزانا للذاكرة، لذلك سنحاول في هذه الورقة البحثية تتبع تطور علم التاريخ في العالم الإسلامي من خلال هذه التجربة، التي مرت في اعتقادنا على أربعة مراحل.

01.المقدس والتاريخ:

بنيت خطوط امداد المعرفة التاريخية في بداية عهدها في العالم الإسلامي، على تصورات مجتمعات شبة الجزيرة العربية، حيث سادت الأخبار الحكواتية، والبنى الذهنية السردية، التي استلهمت من محيط الأمصار وعيش الفقار، فكانت الذات البدوية ترسم في الماضي عبر سياق مختنق ترابيا، مبتور وجوديا بفعل الطوق الحضاري للإرث البيزنطي- الروماني، أو الفارسي، الذي جعل من عزلة مجتمعات شبة الجزيرة العربية واقعا مكبلا بحالة سكون ذهني يتغذى من بيئة يحركها الموروث المحلي، الذي يقوم على " القصصية" التي انتجت مخيالا مشبعا بالغزوات والبطولات، التي فرخت ذهنية الرمز الذي تدور حوله الأحداث³⁸².

طبعاً هذه البنى التراثية تسللت إلى مشهد بعد ما أسلمة الأرض بشبه الجزيرة العربية، حيث زحفت المتغيرات العقديّة في قالب النص المرجع والشخص المحوري و المدينة المركز، فكان هذا الثلاثي مُرتكز في انبعاث كتابة تاريخية " متدينة" تقاطع فيها موروث الرمز مع المقدس، فكان الملمح العام بروز " المحورية" التاريخية التي تحولت إلى وعاء تدويني، تراحمت حوله التصورات النصية، التي أنتجت خلال الثلاث قرون الأولى للهجرة " التاريخ القطب" الذي يستند إلى " فقهية الماضي"، و " قدسية صانعيه"، فكانت بذلك الكتابات حول السيرة النبوية، والمغازي، والفتوحات، أحد أوجه التراكمية التي طبعت الكتابة التاريخية في بداية عهدها في الحيز الإسلامي³⁸³.

استطاعت هذه التراكمية أن تعيش وتتغذى من توسع رقعة الاسلام، وانضمام فضاءات أخرى إليه، ما عمق من تشكيلات هذا النوع من الانطباع النصي، الذي لم يرقى بعد إلى المعرفة

382 - توفيق بن زردة، محاضرات حول المنهج التاريخي، محاضرات مقدمة لمستوى السنة الثالثة ليسانس، جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، السنة الجامعية، 2019-2020، ص، 68- 73.
383 - توفيق بن زردة، المرجع السابق، ص، 112.

التاريخية بشكلها المتشعب والموسع، بقدر ما كانت تحفا مقدسة، مشحونة منذ القرن الثاني للهجرة بتقفي أثر المرويات النبوية، التي تحولت إلى ظاهرة تاريخية تقوم على العنونة والإسناد الذي عمق من ثقافة المشافهة التي سعت إلى صون وجودها بإقحام معادلة الجرح والتعديل³⁸⁴.

إن هذه التركيبية المفاهيمية هي تحصيل بيئة ثقافية متدينة، انتجت نص تاريخي ساير لحظة المتغير الأممي، الذي حث الإنسانية على الانتقال من تجربة عقائدية تائهة إلى بنى عقائدية مؤسسة تبني لأريحية اجتماعية ومصير سعيد لذلك بنيت هذه المرحلة التدوينية على ثلاث أسس هي: النص المقدس (القرآن الكريم) كونه دستور حياة، ثانيا الشخصية المركزية التي تدور حولها الأحداث ممثلة في شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم، باعتباره الملهم الحي والقنوة الأبدية، التي على الإنسانية أن تستلهم منها، وثالثا البيئة التي احتضنت هذه الأحداث وكانت فاعلا في تمظهراتها التاريخية.

لقد شكلت هذه التصورات مرجعية في الكتابة، خلال القرن الأول والثاني للهجرة، حيث تحيل النصوص التاريخية، إلى حالة تحول نوعي لدى مجتمعات شبه الجزيرة العربية وتخوم بلاد الشام والعراق، التي فيها النص المقدس بالضال، والغير مُوحدة، وعددها السياق الحضاري متخلفة، مقارنة بما تشهده بلاد الفرس أو الامبراطورية البيزنطية وريثة الرومان، لذلك كان مهبط الوحي بهذه الأرض، هو بمثابة إعلان رباني لبداية مرحلة بشرية جديدة تتكيف فيها الأرض مع السماء، انطلاقا من ثالث نص مقدس بعد التوراة والانجيل وهو القرآن الكريم، باعتبار الأول والثاني، قد حُرف، فيما الثالث فُقد له أن تحفظه العناية الالهية³⁸⁵، لذلك تحولت النصوص التاريخية في هذه المرحلة إلى نصوص مؤمنة، تأثرت كثيرا بالقصص القرآني الذي يستعرض أحداث مختلفة، لأفراد، وأقوام، وأنبياء ورسول، الغرض منها رسم التصور الرباني لأهل الأرض، وارشادهم إلى ما يحقق الانسجام بين النص المنزل والإنسان، فتحوّلت قصة الخضر، وأصحاب الكهف، وعاد وثمرود وقوم صالح، وغيرها من القصص إلى قوالب نصية جاهزة في الكتابة التاريخية التي تستلهم من الوحي.

وأكثر ما يثير في هذه الظاهرة هو تسلل "الميتافيزيقا" إلى النص التاريخي في هذه المرحلة المبكرة، حيث دفعت أسلمة العقل إلى الخوض فيما لم يستوعبه العقل من معارف في تلك المرحلة، فكان النص المقدس هو المصدر في هذا اللون من الكتابة، التي خاضت في نشأة الأرض والسماء

³⁸⁴- جمال عبد الهادي ، وفاء رفعت و، منهج كتابة التاريخ الإسلامي، لماذا ؟ وكيف ؟ ،الوفاء للطباعة والنشر، 2005، القاهرة، ص، 97.

³⁸⁵ - لقوله تعالى " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " سورة الحجر، الآية 09.

وظهور الإنسان، وحتى دقائق حياة بعض الشعوب والأقوام، ورغم أنها كتابة تفتقد للمنهج العلمي، لكنها تجذرت بفعل ارتكازها على يقينيات قلبية، لا تحتاج إلى التمهيص والتدقيق بقدر ما تحتاج إلى الإيمان القوي بها.

لقد بقي هذا التصور يطبع المشهد العام للكتابة التاريخية عند المسلمين خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، لكن مع نهاية هذه المرحلة، ستكون الأرض قد توسعت، ونطاقها خرج عن نطاق مهبط الوحي، فيما السلطة لبست عباءة الخليفة، الذي صار يحكم أمصار كثيرة بخلفيات ثقافية وموروثات دينية قديمة، تسللت إلى البنية الذهنية للمسلمين، الذين تأثروا خلال العهد العباسي بالتراثيات المسيحية التي تبجل المسيح وتعدده محور الديانة المسيحية، لذلك كانت من افرازات هذه المرحلة هو جمع أحاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، التي صاحبها ظاهرة تدوينية تُعنى بالسيرة النبوية، على غرار ما كتبه الامام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ووهب بن منبه اليماني، وسهل بن أبي حثمة وابن هشام والواقدي، وكلها نماذج عكست أن شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان له بالغ الأثر في التأسيس لعلم التاريخ -عند المسلمين-، الذي تشعب تدريجياً في شكل مُدونة عسكرية اهتمت بغزوات النبي، أو سيرة المغازي، مثل كتاب طبقات محمد بن سعد (ت.230هـ)، الذي خصص جزأه الأول لسيرة النبي من حيث مولده، نبوته، أصحابه، صفته في التوراة والإنجيل، والجزء الثاني خصصه لمغازي النبي وسراياه، وعلى منواله نجد كتاب مغازي سيدنا محمد (صلى) وسراياه لأحمد بن الحارث الخراز (ت. 258هـ / 871 م)³⁸⁶.

لقد كان كافياً مرور حوالي قرنين من البعثة المحمدية، لتتشكل ذاكرة جماعية حفظت السيرة النبوية في خزان المشافهة، لتترجمها في شكل أفعال وسلوكيات غاب فيها التوثيق، لذلك انتجت العناية الانسانية بهذه السيرة وتحويلها إلى نص مكتوب خاصية فريدة اقترنت بالمسلمين، تمثلت في خط العنونة وظاهرة السند التي ارتكزت إلى العقل التراثي، حتى أنه جاء في الأثر " مثل الذي يطلب دينه بلا اسناد مثل الذي يرتقي السطح بلا سلم، فأنى يبلغ السماء ؟ " كما قال الأوزاعي (ت. 77هـ / 157م) " ما ذهب العلم إلا بذهاب الإسناد " ، وبالتالي طفت هذه الخاصية على المشهد التدويني، وغدت تركيبية أساسية في الكتابة التاريخية التي باتت أدواتها بمرتكزات سنديّة قامت

386 - محمد أمحزون، منهج دراسة التاريخ الإسلامي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2010، القاهرة، ص 185-188.

على الجرح والتعديل، و تقاطعت فيها المشافهة مع الموروث، لذلك كان التاريخ في هذه المرحلة أحد حقول علم الحديث، ويدون بخلفية العقل التراثي³⁸⁷.

في المقابل كانت بيئة شبه الجزيرة العربية شاهدا زمنيا على هذا الكم المتغير الذي غالب التقليدي، فشاعت المدينة القطب، برمزية المُقدس الذي وجب التأريخ له انطلاقا من خصوصية النبوة التي اعتمدت على مكة والمدينة كمراكز حضرية احتضنت الفعل الرسالي، فانطلقت مكة من العاصمة الاقتصادية لغالبية بدوية، والقبلة التي تُستهلك فيها طقوس التدين في مواسم الحج قبل الاسلام، إلى الحاضرة التي يشع منها أثر النبي والمتغير الكوني، فيما لعبت يثرب أو المدينة المنورة دور الراعي الذي استقطب هذا المتغير بدفع نبوي، لتتحول بذلك إلى عاصمة تحتضن مشروع رسالي أممي.

لقد أصبحت الحاضرتين من البعثة النبوية إلى قيام الدولة الأموية (41 هـ)، أقطاب يشع منها المُقدس الذي زحف على المشهد العام لشبه الجزيرة العربية التي باتت مجالا مشحونا بالإسلاميات التي فككت المشهد التراثي العقائدي القديم، كما أعادت رسم الملمح السوسيو- ثقافي انطلاقا من خاصية التقوى³⁸⁸ واذابة الفروق الاجتماعية³⁸⁹، حيث شكلت صحراء شبه الجزيرة العربية في هذه المرحلة المجال الحاضن، والبيئة التي انتقلت من البداوة الكافرة إلى البداوة المؤمنة، لذلك برزت كتابات تاريخية اهتمت بتدوين ماضي هذه البيئة وأقطابها الحضرية المقدسة (مكة والمدينة)، على غرار مؤلف محمد بن الحسن بن زباله " تاريخ المدينة" وكتاب أخبار المدينة المنورة للزبير بن بكار، وأيضا تاريخ المدينة لابن شبة³⁹⁰.

1- السلطة والأرض والتاريخ:

أممية الإسلام جعلت من الأرض رهان بنيوي، ومن الإنسان رهان تعمييري، لذلك شكل بُعد التراب في إرثه وموروثه وثروته وعمقه هدفا جيواستراتيجيا وألوية من أولويات المسلمين منذ البعثة النبوية، حيث سرعان ما وجهوا هدفهم شمالا إلى نطاق حضاري مشبع بالموروثات الفارسية

387 - حول خاصية التدوين هذه أنظر مثلا :

محمد بن صامل العلياني السلمي ، منهج كتابة التاريخ الإسلامي حتى نهاية القرن الثالث هجري، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، 1984، جامعة أم القرى.

388 - لقوله تعالى " إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" [الحجرات: 13]، "وقوله صلى الله عليه وسلم : " لا فرق بين عربي ولا عجميا ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى"

389 - لقوله تعالى " إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ" [الأنبياء: 92]، وقال جل وعلا: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: 51-52].

390 - عمر ابن شبه النميري ، تاريخ المدينة المنورة، تقديم قاسم السامرائي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1999.

- البيزنطية، التي تحولت إلى رصيد تدفق إلى وعاء الإسلام وقالب المسلمين، لأن نبوءات النبي محمد صلى الله عليه وسلم بفتح بلاد فارس أو القسطنطينية، هي - أيضا- نبوءات بإحياءات لفضاءات جيواستراتيجية، ولمفاصل جغرافية ستقوي من أرض الإسلام، والفتح يحمل في أبعاده ما يجعله أيضا فتحا لعقل المسلم على موروث الشعوب غير المسلمة، لذلك كان اعتناق الإسلام فعلا اختياريا لا يحكمه الغضب، بل ينساق نحو الاحتكاك الثقافي والتعايش مع غير المسلم، ضمن أطر تحكمها السلطة القائمة³⁹¹.

إن هذا التصور الأممي لثنائية الأرض والإنسان، جعل من النصف الثاني من القرن الأول للهجرة انطلاقة لتجسيد هذا المشروع بطابعه الشمولي، الذي اكتسح لأول مرة ما وراء المجال البدوي، حيث تتدفق طبائع سلطوية تجاوزت المفهوم القبلي العشائري، إلى مفاهيم سياسية تركز على تقاليد امبراطورية، سرعان ما تسللت إلى التصور الجمعي لدى المجتمعات المسلمة التي انتقلت من النمط البدوي التقليدي إلى النمط الامبراطوري، الذي قوامه سلطة مركزية قوية وحيز ترابي واسع، لذلك انسقت البنية الذهنية لصناع القرار السياسي عند المسلمين في تلك المرحلة نحو صون هذا المكسب بإرساء دعائم له تتغذى من المادة التاريخية. لكن كيف تم ذلك ؟

في الواقع مع بروز ظاهرة الدولة الامبراطورية التي اجتاحت المشهد الجيوسياسي في العالم الاسلامي، ممثلة في الدولة الأموية (41 هـ / 132هـ) ومن بعدها الدولة العباسية (132 هـ / 656هـ) وانتقال مركز الثقل من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام والعراق، بدى جليا أن علم التاريخ دُفع إلى صون دائرة الحكام وعد مآثرهم، فكانت كتب المناقب اطلالة تاريخية تشد من عضد الدولة وتبسط سلطانها، في مشهد يحيل إلى صناعة "الشرعية التاريخية" بتاريخية موجهة، انتقلت بثقافة السند من الغرض المقدس إلى الغرض السياسي، ومن المشافهة إلى التدوين، فكان تسجيل أخبار الفتوحات التي اكتسحت أعماق الأمم البعيدة، هو بمثابة تدوين لحظة الحق التاريخي على الأرض وتخومها، فإذا ما انهارت تلك الدولة - الامبراطورية اشتغل مخيال الأمة ملتفتا إلى شرعيتها التاريخية الترابية، حيث برز في هذا السياق الكثير من المؤلفين على غرار ابن قتيبة الدينوري (ت. 276هـ) في مؤلفه "المعارف"³⁹² ، واليعقوبي (ت. 897هـ) في تأريخه³⁹³،

391 - توفيق بن زردة، حفريات حول السياسة الاستعمارية في الدول المغاربية، دار الهدى، الجزائر، 2022، ص، 16.

392 - ابن قتيبة الدينوري، المعارف، دار المعارف، 2007، القاهرة

393 - اليعقوبي أحمد ابن اسحاق، تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، الشركة الاعلامية للمطبوعات، 1993 ، لبنان.

والمسعودي (ت. 956هـ) في كتابه مروج الذهب³⁹⁴، وفي الفتوحات البلاذري (ت. 892هـ) في كتابه "فتوح البلدان"³⁹⁵، وكتاب "فتوح مصر والمغرب" لعبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الحكم (ت. 781هـ)³⁹⁶، وكتاب "تاريخ افتتاح الأندلس" لابن القوطية القرطبي (ت. 367هـ)³⁹⁷، وغيرها من المؤلفات التي رصدت راهنية القائم الزمني في بعده الامبراطوري، انطلاقا من تشكلات البناء الذهني التدويني المركب من ثلاثية: السلطة والأرض والتاريخ، وهي الثلاثية التي جرف حبرها أيضا الفضاءات المحلية باعتبارها أجزاء من مكون امبراطوري، لذلك برز لون التاريخ المحلي، الذي ظهر في كتابات أحمد بن أبي طاهر طيفور في كتابه "تاريخ بغداد" (ت. 280هـ)³⁹⁸ وفي تاريخ الموصل لابن إياس الأزدي (ت. 334هـ)³⁹⁹، وعن البصرة عمر بن شبه (ت. 262هـ) وعن اليمن الهمداني في كتابيه "صفة جزيرة العرب" و"الإكليل"، وابن زولاق عن مصر⁴⁰⁰، وغيرها من المؤلفات التي دوّنت بدفع امبراطوري.

بعد انهيار الامبراطورية العباسية (656هـ) حدث المتغير الذي عصف بالسلطة وشتت الأرض، لكن التاريخ رمى بثقله الوجودي عندما تحول إلى قالب جاهز ينتظر مادته السياسية بعباءتها الخليفية، فكان ميلاد الامبراطورية العثمانية (1299م) بداية لتجدد الدورة التدوينية، وانبعثت تاريخ ما بعد الصدمة (سقوط بغداد) في شكله الامبراطوري، حيث شساعة الأرض وقوة السلطة يستجديان ثقل التاريخ، لذلك لم يخرج المنظور العثماني عموما عن السياق العباسي، حيث شاع تدوين مناقب آل عثمان وفتوحاتهم، وتراجم بعض سلاطينهم وولاتهم، كأحد مقومات القائم السلطوي ومكاسبه الترابية، حيث استهل هذا الحقل التاريخي المناقبي يخشى فقيهه، في مؤلفه حول مناقب آل عثمان، ومن بعده عاشق زاده في مؤلفه "تاريخ آل عثمان"، وأيضا "سليماننامه" لإدريس البديسي وأبي الفضل، و"سليماننامه" لإسحاق جلبي، و"سليماننامه" لقرّة جلبي (ت. 1068هـ/ 1657م) الذي يؤرخ للعثمانيين حتى عهد سليمان القانوني، ومناقب السلطان بايزيد لجمال الدين المبرد، و"الدر المنظوم في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم" لابن العليف أحمد بن

394 - المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعته كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، 2012، القاهرة.

395 - البلاذري أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، دار الهلال، 1981، بيروت.

396 - عبد الرحمان بن عبد الله، فتوح مصر والمغرب، تحقيق شارلز توري، الهيئة العامة للفنون، د.ت. القاهرة
397 - ابن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق ابراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989.

398 - ابن طيفور أبي الفضل أحمد بن طاهر، كتاب بغداد، صححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، 1949.

399 - ابن إياس الأزدي أبو زكريا يزيد، تاريخ الموصل، دار الكتب العلمية، 1982، بيروت.

400 - عبد الله سالم محمد بازينة، "تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين من القرن (01-04 هـ/ 07-11م)"، مجلة البحوث الأكاديمية، 12.ع، الجزائر، 2018، ص 56، 57.

الحسين (ت. 926هـ / 1519م) حيث ورد في مقدمته " فلما كان تقييد المآثر من أهم الأسباب، وتأييد المناقب من شأن ذوي الألباب، حفظا لذكر محاسن الأيام وضبطا لآثار أفعال الكرام ... "401 ومن المؤلفين أيضا الذين اشتهروا في هذا اللون من الكتابة التاريخية، نذكر: محمد قونوي، وكمال باشا، وطورسون بك، وغيرهم، كما يشير الملح العام التدويني إلى شيوع الأثر العسكري على معظم المؤلفات العثمانية، لاعتبارات بنوية- تاريخية، حيث أنتجت هذه الخاصية القديمة الجديدة اني استلهمت من الذات التاريخية عند المسلمين في تدوين الماضي الامبراطوري، أنتجت كتب الغزوات أو " الغزواتنا " وهي المؤلفات التي تناولت سلسلة الأحداث التي جرت أثناء الغزوات والفتوحات، ووردت أحيانا باسم " غزواتنا " ومنها ما تعلق بغزوة واحدة وربما أطلق عليها اسم " فتح نامه " ومن أبرز المؤلفات التي وردت في هذا الصدد نذكر " غزواتنا " لميخال أو غلو علي بك، وسوزي جلبي، وغزوات داود باشا لخير الدين جلبي⁴⁰².

ورغم بروز ثلاثية السلطة والأرض والتاريخ خلال مرحلة الدولة الامبراطورية، لكن يحسب لهم، اهتمامهم بدواوين الدولة، والانفتاح على التاريخ العالمي، من منظور جيواستراتيجي قام على فهم الآخر، فكان بذلك التاريخ العابر للحدود مقوم آخر يشد من عضد هذا الكيان السياسي ويقوي من ركائزه، لذلك لم تختلف الأطر العامة عن ترسيخ ثقافة " التاريخ الرسمي "، الذي تقاطعت فيه الكتابة التقليدية، مع منهج البحث التاريخي، الذي راح في سياقه الغير رسمي يكشف عن براعة مُلفتة على غرار براعة ابن خلدون في ربط الحوادث التاريخية بالمعنى الاجتماعي والسياسي⁴⁰³، أما شيوع "الرحلة" - خاصة في المرحلة العثمانية- فعمق من فهم الذات الأممية (الأمة الاسلامية)⁴⁰⁴.

401 - رابعة مزهر شاكر، محمد عبد القادر خريسات " الكتابة التاريخية عند العثمانيين في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي " مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، المجلد 41، ع.01، 2014، ص، 72..

402 - رابعة مزهر شاكر، محمد عبد القادر خريسات، المرجع نفسه، ص، 74.

403 - تظهر هذه البراعة خاصة في كتابيه المقدمة وديوان العبر

عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، دت. بيروت

عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج.01-06، دار مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 1979، بيروت.

404 - على غرار رحلة العياشي خلال القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر ميلادي، ورحلة الورتلاني خلال القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر ميلادي:

عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية 1661-1663، حققها وقدم لها سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006

الحسين من محمد الورتلاني، الرحلة الورتلانية، الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد ابن شنب، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2003، الجزائر

ومع نهاية القرن الثامن عشر ميلادي يكون العالم الاسلامي قد اكتمل ملمحه في كتابة التاريخ، الذي تحول إلى دفاعات أمامية يتأثر مستواها بصحة السلطة أو علتها - وإن أصابها الزكام- ، لذلك وبحلول القرن التاسع عشر، كان أول من تأثر بالمتغيرات العالمية هو علم التاريخ الذي بقي في جوهره حبيس القصور، في الوقت الذي اجتاحت فيه الطفرة الحضارية الأوروبية المشهد العالمي، وراحت بطريقة التلاعب الواعي تشق طريقها نحو الشرق المُتصور منذ عهد الاسكندر المقدوني، حيث وجهت فرنسا حملة ضد مصر (1798- 1801) " كفتوحات للعقل الشرقي" فجلبت معها مطبعة وحشد من العلماء من مختلف التخصصات، تُوجت أبحاثهم بعدة دراسات منها تدوين تاريخ واحدة من أعرق الحضارات الانسانية التي كانت تقع في جغرافية العالم الاسلامي، وهي الحضارة الفرعونية، بعد فكك عالم اللغات الشرقية فرنسوا شامبليون (François Champollion)، رموز لغتها (الهيروغليفية) كمؤشر على التهام الحداثة للجمود الفكري⁴⁰⁵.

2- ماقبل الوطنية والتاريخ:

كشف الانقلاب الحضاري - منذ القرن الثامن عشر-، عن اختلال معرفي بين الشرق والغرب، نتيجة عقل أوروبي جنح إلى العلم وتقوى بالمناهج العلمية - على غرار منهج التاريخ- فبات ينظر إلى الشرق على أنه " فضاء متحف لا يتجاوز الولوج إليه تذوق بعض جماليات الحضارة الإسلامية البدائية"، حيث مهد هذا التصور لبداية ابتلاع " أسطورة الشرق" من خلال حركة استعمارية اجتاحت العالم الاسلامي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين وفككت نموذج الترابي في طابعه الأممي، بعدما حولته إلى أشلاء جغرافية، ثم راحت تصدر في الرصيد التاريخي بذوقه الشرقي وتعوضه بتاريخ لاتيني- روماني، حيث أفضت هذه " الجزائر التاريخية" إلى انكماش في الكتابة التاريخية التي دخلت في حالة صدمة، أفضت إلى غيبوبة عمت مثلا المشهد المغربي، الذي لم تجدد دورته في الكتابة التاريخية إلا مع نشاط الحركة الوطنية⁴⁰⁶ خلال النصف الأول من القرن العشرين، حيث طبع هذه الكتابة ظاهر " البرهنة على العراقة والتواجد التاريخي" في محاولة للرد على سياسة اقضاء الآخر التي مارستها الكتابة التاريخية الأوروبية، حيث أسس هذا النوع من التدوين التاريخي لمرحلة "ما قبل الوطنية"⁴⁰⁷، وهي المرحلة التي يحتاج تشريحها إلى الاحاطة بمظاهر اختراق الذات التاريخية للعالم الاسلامي من خلال نموذج البلاد المغربية.

405 - توفيق بن زردة، حفريات حول السياسة الاستعمارية في الدول المغربية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2022، الجزائر، ص، 64.

406 - هي حركة ولدت من رحم المجتمع ومعاناته، كان غرضها الانقلاب على الواقع الاستعماري.

407 - توفيق بن زردة، المرجع نفسه، ص، 85.

في الواقع جعل الاستعمار من هذه البلاد حقولا للحفريات العلمية، التي انطلقت من الجزائر باعتبارها أول مستعمرة (1830)، حيث وبتأطير من وزارة الحربية دشنت مرحلة الاكتشافات العلمية- على غرار ما وقع في مصر- فأهتم "بروسلار" (Brosselard) بتاريخ الخط العربي، و" كاريت" (Carette) بتاريخ وأصول القبائل⁴⁰⁸، و"هانوتو" (Hanoteau) باللهاجات المحلية، وغيرها من الأعمال التي توجت في عدة مجلدات⁴⁰⁹. وتحت وصاية نفس الوزارة، أطلق مشروع "الوحة وضعية المؤسسات الفرنسية في الجزائر"، الذي غاص فاعلوه على غرار "ايسترهازي" (Esterhazy)، و"بيلامار" (Bellemare)، في تدوين تاريخ أواخر المرحلة العثمانية إلى جانب الإلمام بموروث الساكنة المحلية⁴¹⁰، في الوقت الذي تحول فيه ضباط عسكريون متخصصون في علم الهندسة إلى ترسانة تدوينية أعدت كتابات مونوغرافية وصفية، ومنهم من تعمق في الدراسات الأنثروبولوجية والظاهرة الدينية، قصد تركيب مدلولات تاريخية عن المجتمع الجزائري، كان من أشهرهم الضابط المترجم "شارل فيرو" (Charles Féraud) الذي اهتم بتاريخ المجتمعات الريفية، إلى جانب تاريخ بعض المدن على شاكلة بجاية، جيجل، سطيف، برج

⁴⁰⁸- من نتائج أعمال كاريت هي خريطة قبائل الجزائر التي تعد مرجعا لأحد مراحل توزيع الجماعات الريفية خلال النصف الأول من القرن الـ 19، وأيضا المسالك والدروب التي كانت منتشرة في هذه المرحلة:
:Ernest Carette et Auguste Warnier, *Carte de l'Algérie divisée par tribus* 1846, échelle 1:1000000, Bibliothèque national de France, (gallica.bnf.fr/1
Ernest Carette, *Etude des routes suivies par les Arabes dans la partie méridionale de l'Algérie et de la Régence de Tunis* 36-9. Imprimerie Royale, Paris, 1844, p.
⁴⁰⁹- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج.1، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص، 20-24.
⁴¹⁰- *Tableau de la situation des établissements française dans l'Algérie*, 1838-51, 14, (1838-51), Imprimerie Royale, Paris, vol,1

بوعريريج، القالة، والمسيلة⁴¹¹، وأميل ماسكوراوي (Emile Masqueray) الذي تخصص في فضاء الأوراس⁴¹²، ولوي رين (Louis Rinn) الذي اهتم بتاريخ الظاهرة الصوفية⁴¹³.

كما حضر العمل الجمعي الذي صاحبه صدور دوريات تاريخية على غرار جمعية قسنطينة للآثار (1852) ودوريتها (Annuaire) التي حُوت إلى اسم (Recueil)، والجمعية التاريخية الجزائرية (1856) التي أصدرت المجلة الإفريقية (Revue Africaine) ومديرها بربريجر أندري (Andrien Berbrugger)، وهي المجلة التي باتت أغنى مصدر معرفي، حيث اهتمت بكل ما يتعلق بالفضاء المغربي وحتى الإفريقي، منذ أقدم العصور، وفي الغرب الجزائري ظهرت جمعية وهران الأثرية (1878) ودوريتها (Bulletin)⁴¹⁴.

أما في النصف الأول من القرن العشرين وبالتحديد سنة 1935، فتأسست اتحادية الجمعيات العلمية بشمال إفريقيا، التي ضمت جمعيات ومراكز، ومعاهد وأيضاً لجان علمية توزعت في كل من الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، ففي الجزائر مثل معهد الدراسات الشرقية، جمعية أصدقاء تلمسان، وعن تونس معهد قرطاج، وجمعية سوسة الأثرية، وجمعية التاريخ الطبي بالمغرب الأقصى⁴¹⁵.

كما لقي التراث المخطوط اهتماماً من بعض رواده، على غرار "بربريجر" الذين كان يتبع جيش الاحتلال الفرنسي في الجزائر، ليجمع المخطوطات التي تتوزع بين الزوايا والجوامع

⁴¹¹ - من دراسات شارل فيرو:

Laurent Charles Féraud ., «Ain Beida», *R.A*, 16,(1872),pp.402- 419
L.Ch.Féraud., « les Harar seigneurs des Hannencha » ,*R.A* ,18,(1874),p.22-32 ,119-123,127-149,196-236,281-294.

L.Ch.Féraud., « Corporations de Métiers à Constantine avant la conquête française », *R.A*, 16 ,(1872),pp.451-454.

L.Ch.Féraud., « Notes sur Tebessa », *R.A*, 18 ,(1874),p.430 – 473.

L.Ch.Féraud., «Ain Beida», *R.A*, 16,(1872),p.402- 419.

L.Ch.Féraud., « Notes historique sur les tribus de la province de Constantine », *R.S.A.C*,(1869),p.20- 45.

L.Ch.Féraud, *Histoire des villes de la province de Constantine, Setif, Bordj Bou Aferidj- Mesila- Bousaada*, Editeur Arnolet, Constantine, 1872

-Emile Masqueray., « Djebel Chechar », *R.A*, 22 ,(1878).p.26- 48, 127-144,127- 412
144- 213, 257- 281.

E. Masqueray., *La formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie*, Edition Leroux, Paris, 1886.

-Louis Rinn, *Marabouts et Khouans ,étude de l'islam en Algérie*, Edition Adolphe⁴¹³
Jordan, Alger, 1884.

⁴¹⁴ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص، 16

⁴¹⁵ - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص، 39

والمكتبات الخاصة، ليعود بها إلى العاصمة (الجزائر)، ليتولى " ألبير دوفو" Albert (Devoulx) ترتيب وتنظيم ما تم جمعه من دفاتر وسجلات إدارية وعسكرية وعقود إدارية، تحولت مجتمعة إلى النواة الأولى للأرشيف الجزائري، الذي عُين ألبير دوفو محافظا عليه لمدة ربع قرن، نشر خلالها وثائق هامة تتعلق بالفترة الوسيطة والحديثة، على غرار نشره لمخطوط التشرifiات⁴¹⁶. كما عاد الفرنسيون إلى الرصيد المغربي من كتب المؤرخين والرحالة و أعادوا نشرها كالبكري، وابن خلدون، والعياشي، وليون الأفريقي (حسن الوزان).

ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت قد توسعت دائرة البحث إلى كل من تونس والمغرب الأقصى، والفضاء الصحراوي تزامنا مع إنشاء المدارس العليا في الجزائر (1880)، التي كثف أساتذتها جهودهم مع جهود الجمعيات التاريخية والأثرية السالفة الذكر، لينطلق مسار جديد أصبحت فيه كتابة تاريخ شمال إفريقيا طاغيا بقوة، خاصة بعد احتلال فرنسا لتونس (1881) وبداية اهتمامها بالمغرب الأقصى، كما أصبحت مدرسة الآداب العليا في الجزائر تدرس وتبحث في تاريخ الدول المغربية، حيث انتقل لاحقا بعض التراجمة والباحثين من الجزائر وأصبحوا عاملين في تونس والمغرب الأقصى، كل هذه الأعمال والنشاطات مهدت لظهور بعض المعاهد مثل " معهد الدراسات العليا المغربية" (1920) في مدينة الرباط، وتأسيس اتحادية الجمعيات العلمية لشمال إفريقيا (1935)، التي أصبحت اجتماعاتها سنوية تعقد كل مرة في إحدى المدن المغربية، لتنسيق جهودها وتبادل خبراتها ومعلوماتها، ليتحول بذلك الفضاء المغربي إلى مخبر مفتوح للحفريات العلمية التاريخية، التي دفعت بالكثير من الباحثين إلى قطع المسافات الطويلة بحثا عن المصادر⁴¹⁷.

لقد برز خلال هذا العهد الكثير من الأساتذة الجامعيين على غرار ستيفان غزال (Stéphane Gsell) الذي اشتغل على تاريخ شمال إفريقيا القديم⁴¹⁸ وإدموند دوتي (Edmond Douité) الذي اهتم بالسوسيوولوجية الدينية⁴¹⁹ معتمدا على المدرسة التطورية البريطانية في دراسة الظواهر الدينية في مجتمعات شمال إفريقيا، وهو ما جعله يطبق نظرية الرواسب أو البقايا الوثنية على جميع

⁴¹⁶ Recueil de Notes historiques sur l'administration de :Albert Devoulx, Tachrifat-
l'ancienne Régence d'Alger, imprimerie du gouvernement, Alger, 1852.

⁴¹⁷ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص، 24.

⁴¹⁸ - من إنتاجاته العلمية:

l'Algérie, Edition spéciale des cartes au de archéologique Gsell, Atlas Stéphane
20.000° du service géographique de l'Armée avec un texte explicatif, Edition Adolphe
Jordan, Alger et édition Fonteing, Paris, 1911.

Gsell, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, T.1-6, Librairie Hachette, Paris, 1927..S
musulmane, Berbérie la dans l'islam sur marabouts, notes -Edmond Douité, Les⁴¹⁹
Editions Alger-livres, Alger, 2008.

المعتقدات والممارسات الدينية في الفضاءات المغاربية خاصة في كتابه " السحر والدين في افريقيا الشمالية ". واهتم بهذا النوع من الدراسات في المغرب الأقصى أيضا شارل دوفوكو (Charles de Foucauld) و ادوارد ميشو بلير (Edouard Michaux-Bellaire)، هذا الأخير الذي عين سنة 1906، مشرفا على البعثة العلمية في طنجة، وكتب مؤلفه " الزوايا بالمغرب " سنة 1928⁴²⁰ تقليدا لمؤلفات اكتاف ديبو (Octave Depont) وكزافييه كوبولاني (Xavier Coppolani) في الجزائر⁴²¹، وكتب شارل مونشيكور (Monchicourt Charles) عن الطريقة الصوفية الشاذلية بتونس، أما ما وراء البحر فكان شارل أندري جوليان (Charles- André Julien) من المهتمين بتاريخ شمال إفريقيا⁴²².

كما كرس ريني باسي (René Basset) حياته للدراسات حول البربرية في الشمال الإفريقي الذي عدد منها 1200 لهجة شفوية، إضافة إلى إميل ديستان (Emile Dustin) الذي أنتج عدة دراسات لغوية حول المنطقة المغاربية، منها القاموس الفرنسي البربري (1914) ومؤلفه " اللهجة الشلحية في منطقة سوس بالمغرب الأقصى " (1938)، وفي نفس الوقت كان مدرسا للغة البربرية بالمدرسة الوطنية للغات والثقافات الشرقية ومقرها باريس (INALCO)، هذه المدرسة التي تحولت إلى مرجع أوروبي في الأبحاث وتكوين الطلبة المهتمين بالدراسات حول الفضاءات المغاربية والمشرقية⁴²³.

لقد عمدت هذه الكتابات مجتمعة - ضمن سياق أوروبي - لاتيني- إلى اقصاء الذات التاريخية المغاربية، عندما اعتبرتها فضاءات متحف عاشت مرحلة سودوية وفراغ حضاري، امتد من الفتوحات الاسلامية إلى القرنين التاسع عشر والعشرين، إلى جانب عيشها في فوضى تاريخية غير مسبوقة أفضت إلى فشل ذريع في تركيب حكم وطني، لذلك كان الاستعمار على تعدده - حسبهم- هو لتغطية هذا الفراغ وحلقة مكملة للتواجد الحضاري اللاتيني- الروماني في شمال افريقيا⁴²⁴. من منطلق "عدنا إلى أرض الأجداد".

⁴²⁰-عبد الاله فرج، الظاهرة الاسلامية بالمغرب، أعلام وأفكار في العلوم الاجتماعية، ص،

http://www.library.mouminoun.com 16

⁴²¹-musulmanes, Edition religieuses confréries Octave Depont, Xavier Coppolani, Les-

Adolphe Jordan, Alger, 1897.

⁴²²-Charles- André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord des origines à 1830, éditeur

1981 Payot, Paris.

⁴²³ - توفيق بن زردة، المرجع السابق، ص، 112.

⁴²⁴ - مثل كتابات اميل قوتيبي :

Emile-Félix Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1942.

طبعاً تفكيك أركان هذا التصور الاستعماري لتاريخ البلاد المغربية، أخذ سياقات مرحلية، أنتجت في اعتقادنا حالة فريدة في العالم الإسلامي، تمثلت في تأسيس التاريخ لمرحلة ما قبل الوطنية، حيث مع بداية القرن العشرين شهدت البلاد المغربية - نتيجة حقن حضاري متعدد الأوجه- ميلاد حركة محلية بخصوصيات وطنية، انبعثت من صلب المكون الاجتماعي والخصوصية الثقافية المغربية، تمثلت في الحركة الوطنية التي تحولت إلى نضال سياسي مناهض للمشروع الاستعماري، الذي فكك الأرض وصادر التاريخ.

لقد بُنيت خطوط دفاعات الحركة الوطنية المغربية في كتابة التاريخ على قواعد بوصلية تزيل حالة التيه، وتعيد تركيب الماضي بما يتوافق والذات المحلية المشحونة بثنائية الأرض والإنسان، لذلك ركب قوام هذه الكتابة من عناصر هوياتية تجلت في صورة "التاريخ المقاوم"، الذي فتح جبهات تدوينية تصارعت مع الحبر الاستعماري المُغرض، عبر ثلاث مستويات، مستوى التصور العام، ومستوى القائم الزمني، وأخيراً مستوى القطيعة والتواصل؟

فمن حيث التصور العام حاولت الكتابات التاريخية الوطنية أن تزيل حالة البتر الذي أفرزته التاريخية الاستعمارية، التي عمدت إلى قطع خطوط الامداد الهوياتي بفصل البلاد المغربية عن امتدادها الشرقي، واعتبارها جزء من فضاء لاتيني- روماني، لذلك عمدت هذه الكتابات إلى إعادة تشكيل المُتصور المحلي، الذي يعتبر البلاد المغربية جزء لا يتجزأ من الشرق، انطلاقاً من التماثلية الدينية والمقاربة اللغوية، والجغرافية المسكونة بالعنصر الشرقي الذي وفد خاصة منذ القرن الحادي عشر ميلادي ممثلاً في الهجرات السليمية الهلالية، ونرصد في هذا المنحى كتاب " الحركة الأدبية والفكرية في تونس في القرنين 13 و 14 هـ/ 19- 20م، " الذي صدر سنة 1955، لصاحبه محمد الفاضل بن عاشور، حيث تحيل مقارباته حول الصحافة وحركة الشباب والإصلاح الزيتوني، إلى الانتماء الإسلامي الأُممي⁴²⁵.

أما على مستوى القائم الزمني فذهبت الكتابات الاستعمارية إلى توصيف شعوب البلاد المغربية على حد تعبير المقيم العام بالمغرب الأقصى الجنرال "ليوتي" بـ " الغبار البشري" الذي لم ترقى بناه الذهنية إلى مستوى القطيعة مع مرحلة اللانسانية، لذلك تجدهم يعيشون في شكل فوضى، وشتات اجتماعي ينحاز إلى القبلية المتصارعة، والحكم الهامشي، الذي منع من تشكل كتلة اجتماعية برؤى موحدة ومصير مشترك⁴²⁶. عند هذه الفوارق زحف المشروع الوطني المغربي

425 - محمد الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس في القرنين 13 و 14 هـ/ 19- 20م، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972.

426 - توفيق بن زردة، هوامش مجهولة، قراءة جديدة للسياسة الاستعمارية في الدول المغربية، دار الماهر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2021، ص، 63.

نحو كتابة تاريخية تؤصل لوجود أمة تشكلت بفعل الراسب الزمني، والتجارب المترابطة، التي أفرزت وحدة انتاجية للبناء المشترك، الذي تغذى من الأرض والهوية، حيث يقول أحمد توفيق المدني في كتابه "هذه هي الجزائر" الذي صدر سنة 1932 "من هي هذه الأمة التي أدهشت العالم بجهادها، وبهرت الدنيا بنباتها، أمام أعظم قوة استعمارية جردت في قطر من الأقطار....وماهي هذه البلاد التي يسجل التاريخ فوق جبالها ونجودها، وبين شعابها وكثبانها، صفحة من أروع صفحات البطولة...تلتط هي أمة الجزائر، وذلك هو قطر الجزائر"⁴²⁷

أما على مستوى القطيعة والتواصل فتحيل التصورات الاستعمارية إلى وجود قطيعة زمنية مع الماضي، بفعل خاصية "أرض السيف" التي طبعت البلاد المغاربية، بحيث بالكاد تنتهي مرحلة غزو خارجي - حسبهم- لهذه البلاد حتى تتعرض إلى غزو خارجي آخر، بدأ من الرومان إلى البيزنطيين، إلى التوسعات الإسلامية، ثم العثمانيين، ثم الفرنسيين والايطاليين والاسبان، لذلك تشكلت عند العنصر المغربي حالة جفاء مع الماضي "اللعين" فمنعت التواصل معه والغرف من تجاربه وبطولاته⁴²⁸.

طبعاً هذه الكتابة المشوشة تصدت لها الأقسام المغاربية بإعادة مد جسور التواصل مع الزمن، وتركيب قنوات يتدفق منها نبض التاريخ منذ أقدم العصور، في شكل تراكمات حضارية تحيل إلى وجود خبّرات انسانية تسكنها روح مشبعة بالتجارب، حيث يعد كتاب امبارك الميلي الموسوم بـ "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" الذي صدر سنة 1928، نموذجاً لهذه الكتابة التي حفرت في أعماق الزمن، لثلّوح بديمومة زمنية لأحد مجالات البلاد المغاربية، معتمداً في ذلك على أسلوب "الكل" أو التاريخ العام وهو منهج اعتمده العديد من المدارس التاريخية في العالم مثل الاتحاد السوفييتي سابقاً على يد "بتروفيسكي"، والولايات المتحدة الأمريكية على يد "شارل بيرد أوستن"⁴²⁹.

وضمن سياق احياء الراكد عمدت الكتابات المغاربية أيضاً إلى بعث التراث المحلي وإعادة نشر المصادر التاريخية، ومن أبرز رواد هذه الحركة محمد بن أبي شنب (1869-1929) الذي نشر العديد من أمهات التراث الجزائري مثل "عنوان الدراية للغبريني" الذي صدر سنة 1910، ورحلة الورتلاني التي كانت خلال القرن الثامن عشر والمعروفة بـ "نزهة الأنظار في فضل علم

427 - أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر ويليها كتاب الجزائر، المجلد الثامن، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2010، ص، 19.

428 - نرصد في هذا المنحى مثل كتاب تاريخ إفريقيا الشمالية لشارل أندري جوليان: شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، من البدا إلى الفتح الإسلامي 647م، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، مؤسسة توالث الثقافية، 1968.

429 - امبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1-ج2، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، دبت.

التاريخ والأخبار" (1908) و" نحلة اللبيب " لابن عمار (1902)، بالإضافة إلى أبي القاسم الحفناوي (1850-1942) الذي أصدر معجما بأعلام الجزائر سنة 1906، يحمل عنوان " تعريف الخلف برجال السلف" والذي يعد موسوعة للشخصيات الجزائرية التي ساهمت في بعث تاريخ الجزائر الثقافي⁴³⁰.

3- الوطنية والتاريخ:

بقي مفهوم الانتماء الأممي بمرجعياته الاسلامية طاغيا على مشهد العالم الاسلامي، ضمن روابط شعورية ووجدانية تأصلت عبر القرون، حيث كان التنقل داخل هذا الحيز قبل مرحلة الاستعمار تحكمه خلفية دار الإسلام التي يجتمع فيها المسلمون، في إطار من الود الاجتماعي – بتشويش قبلي – والتقارب الثقافي، حيث نجح هذا النموذج في تأصيل حرية العبور وممارسة التجارة، أو طلب العلم على نطاق فسيح، تحولت فيه التخوم إلى ظاهرة سياسية معزولة، مع غياب الرقابة بمفهومها الأوروبي الحديث⁴³¹.

لكن الاستعمار جر إلى العالم الاسلامي مسارا دخيلا، قوامه تفعيل الركائز المؤسسة لسيادة الدولة القطرية، واعتبار تنقل الرعايا في فضاء العالم الاسلامي "مظهرا من مظاهر الفوضى والتصرفات البدائية"، لذلك ظهرت الحدود الترابية بمدلولها الأوروبي المتنوع: (, frontières,

430 - حول هذه الظاهرة يمكن العودة إلى موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي لأبو القاسم سعد الله: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4-6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
431- حول مثلا تاريخ الحدود الجزائرية التونسية خلال المرحلة العثمانية يرجى الرجوع إلى:

André Berbrugger « Des frontières de l'Algérie », *R.A*, n°, 24, 1860, p, 401- 417.
Bernard Roy « Deux documents inédits sur l'expédition Algérienne de 1628 contre les Tunisiens », *R.T*, n°, 122, 1917, p, 191.
Charles Monchicourt « La frontière algéro-tunisienne dans le Tell et dans la Stepp », *R.A*, n°, 81, 1938, p, 31- 59.
Toufik Bachrouche « Pouvoir et souveraineté territoriale, la question de la frontière sous Ahmed Bey » in actes du premier congrès d'histoire et civilisation du Maghreb, Tunis, C.E.R.E.S, T, 02, 1979, p, 195-208.
توفيق بن زردة، الكنفدراليات القبلية الحدودية ودورها في العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني – الحناشنة أنموذجا- مذكرة مكملة لنيل درجة الماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2013-2014، ص، 86- 112.

التخوم الجبائية إلى الحدود الترابية الاقصائية، حيث يسود منطق سياسة الدولة على الأرض⁴³³.

لكن تعويض التخوم بالحدود مع التفريخ الفكري للنموذج الأوروبي، عبر منابر السياسية تسللت إلى العالم الإسلامي بعد موجة الاستقلال أفكار دخيلة ومُشوشة توحى بالانتماء الترابي ببعده الوطني، سرعان ما تبلورت في مفاهيم قومية- وطنية أنتجت مجموعة من الحلقات المتناثرة، في صورتها القطرية التي تحولت إلى ظاهرة جيوسياسية، ففرط العقد وتبدد النموذج التاريخي المحلي، وتحول العالم الإسلامي إلى شتات ترابي بعواقب دخيلة، كانت نتاج تجارب الإنسان الأوروبي وتراكمات التفكك القاري الذي حول الامبراطورية الرومانية إلى أشلاء سياسية، في شكل ممالك ودول وإمارات متناحرة، إلى غاية القرن العشرين، انتهت أطوارها بحربين عالميتين مدمرتين، كانت ذروة الخلافات الأوروبية، التي وجدت أخيراً مخرجها في العودة إلى النموذج الروماني، من خلال بعث الاتحاد الأوروبي، فيما العالم الإسلامي اتجه نحو التفكك والقطرية ببعدها الوطني⁴³⁴.

عند هذا المتغير الدخيل، وخشية الاقصاء الزمني، حيث تحيل المقاربة الخلدونية إلى شيخوخة الدولة واحتضارها مع الزمن، إلى جانب التنافس "القومي" الذي حول العالم إلى حلبة صراع بخلفية الحضور الأممي، عاد التاريخ مرة أخرى ليشكل أحد الدفاعات الوطنية في دول العالم الإسلامي، انطلاقاً من تصورات المرحلة الوسيطة والحديثة، حيث سادت الدولة الامبراطورية، التي استندت إلى التاريخ تثبيتها للسلطة وترسيخها لمجال الأرض⁴³⁵.

لكن الدولة الوطنية منذ النصف الثاني من القرن العشرين، وفي إطار المزاحمة الوجودية، ركبت قوامها من رباعية السلطة والأرض والشعب والتاريخ، حيث اضافت العنصر البشري كروح متدفقة لها جنسيتها (من الجنسية) ودورها في البناء الوطني، فيما تشكلت سلطة ما بعد الخلافة، في إطار أنظمة انسجمت مع الموروث السياسي، والتجارب المحلية، لذلك تنوعت بين أنظمة جمهورية، وملكية، وثيوقراطية، حبيسة مجال ترابي تُشع منه الوطنيات وهو الأرض.

432- فاطمة بن سليمان، الأرض والهوية، نشوء الدولة الترابية في تونس 1574-1881، منشورات اديسيونس، تونس 2009، ص، 300.

433 - توفيق بن زردة، التحولات الاقتصادية والاجتماعية للبلاد الخلفية لمدينة قسنطينة - مجال عامر الشراقة انموذجاً، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2017-2018، ص، 186.

434 www.abri-memoire.org /- Constitution de l'Etat-nations puissantes, http
435 - Abdelmadjid Charfi, *L'islam entre le message et l'histoire*, Edition Albin Michel, 2004,p, 175.

طبعا لصون هذه الثلاثية (السلطة والأرض والشعب) ولخاصية العقل التراثي في العالم الإسلامي⁴³⁶، كان التاريخ مرجع مؤسس وصائن للذات الوطنية، التي تتغذى بالماضي وتتقوى بحريرات بطولية صنعها الأجداد، لذلك ركب قوام هذا التصور في اعتقادنا من عقيدة الخطاب، ومناهج المدرسة، والزمن المرجع، ودور الأرشيف، حيث تحولت هذه "الابتكارات" إلى الصائن للتاريخ الوطني.

ففي عقيدة الخطاب تبلورت خطوط امداد من الماضي المُنتصور، الذي اجتاح السياسة والمنابر الاعلامية والصحفية، إلى جانب المتاحف الوطنية، التي باتت هياكل لصون الذاكرة ومضاد حيوي لظاهرة النسيان، لما قد يشكله هذا الأخير من عامل ضعف قد يأتي على بناء الدولة وفاعلية الإنسان، لذلك اجتاحت الثقافة التاريخية المشهد العام وباتت جزء من الكل الوطني.

أما مناهج المدرسة فباتت مشبعة بالماضي المُوجه الذي يؤسس لتصور عام يحيل إلى وجود منابع تاريخية لا تخرج في جوهرها عن نطاق الحدود الترابية، لذلك أصبحت الشخصيات الوطنية، والأحداث التاريخية بطلتها البطولية، دروس تملأ المقررات التربوية، وحتى الجامعة ومراكز البحث باتت تؤسس لحقول بحث تُعنى بالذات التاريخية الوطنية⁴³⁷، ففي الجزائر مثلا اقتحمت هذه التصورات حتى مادة اللغة الانجليزية، التي تصاغ فيها نصوص وأسئلة تخص المادة التاريخية والموروثات المحلية، كأحد أوجه الصناعة الانسانية.

إن الحديث أيضا عن الزمن المرجع كأحد آليات الصناعة التاريخية الوطنية، هو حديث عن القائم "المقدس" الذي تقدم له طقوس احتفالية في كل مناسبة وطنية، هي نتاج تجربة جماعية وتحديات محلية، أمدتنا بمنجزات قيمية، في شكل وحدة ترابية، أو ثورة تحريرية، أو وثبة بناء و خاصة تطويرية، غدت كلها مرجعيات زمنية لبعث "المجد" وشحن الذات الوطنية، قصد المضي قدما لتحقيق مكاسب اضافية، لذلك تحول التاريخ في هذا المنحى إلى قيمة زمنية تتقاطع ورؤى الدولة الترابية. أما دور الأرشيف في دول العالم الإسلامي فتحولت إلى خزان للذاكرة الوطنية، والحارس الزمني الذي يصون الماضي ويحفظ جاهزيته للكتابة التي تصون الأرض، وتحفظ للمجتمع خصوصيته الثقافية، وأمجاده التاريخية⁴³⁸.

Alfred Louis De prémare, *Les fondation de l'Islam entre écriture et l'histoire*, - 436
l'univers Historique 2002,p.202.

437 - في الجزائر مثل المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الذي تأسس سنة 1414هـ / 1994م، وهو يتبع وزارة المجاهدين ونوي الحقوق.

438 - نسوق في هذا الصدد مثلا رصيد السجلات الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي، وعددها 4065 دفتر، للمزيد من التفاصيل يرجى الرجوع إلى :

لقد أنتجت هذه التصورات في العالم الإسلامي وفي اطار الدولة الوطنية، بيئة ثقافية فرخت ثلاث نماذج فريدة للتاريخ وبمستويات متباينة، تمثلت في: التاريخ الرسمي، والتاريخ الأكاديمي، والتاريخ الشعبي، فالتاريخ الرسمي - تحدثنا عنه أنفا- هو نتاج الرؤى السياسية وتوجهات الأنظمة القائمة، يتم تداوله في المدرسة والمؤسسات الرسمية، في شكل شحنات زمنية ودفاعات وطنية ضمن الحدود الترابية، أما التاريخ الأكاديمي فهو نموذج متحرر بروح بحثية وأدوات علمية أممية، نجده في مؤسسات ترعى المعرفة الحقيقية، أو لدى باحثين يملكون ناصية البحث والكتابة التاريخية، فيما النوع الثالث (التاريخ الشعبي) هو تحصيل وراثي لعقل تراثي، يميل " للزمنيات" ويهوى "الأساطير" لذلك فرخ لنا مرويات وقصص وحكايات، اقتحمت علم التاريخ الذي بات عندهم، كالشاة العجفاء العلية، يسومها كل متردد على السوق.

خاتمة:

تحيل هذه الورقة البحثية إلى أن علم التاريخ تطور في العالم الاسلامي في شكل كتل معرفية، انتقلت من الحيز المقدس إلى الكل الامبراطوري، ثم إلى الجزء الوطني، حيث تأثر هذا السياق بالقائم السلطوي وحجم الجغرافيا السياسية، اللذان تحولوا إلى ملهم لتدوين المعرفة الزمنية، التي بدت عند انطلاقتها - قبل أسلمة الأرض- تائهة، تغمرها قصصيات المجتمعات البدوية، التي اعتادت عيش القفار، حيث السعي إلى الماء أجدر من البحث عن الماضي، لذلك بقي الزمن لحظة مغيبة حبسية مرويات واستنكار عادات، أنتجت اللاتاريخية في أرض البداوة.

لكن وحي السماء أعاد تشكيل ظاهرة التدين، التي رغم فارقها العقائدي، لكنها لم تحد في جوهرها عن رمزية المقدس، الذي أنتج ظاهرة تدوينية وجدانية أسست لمرحلة ما قبل التاريخية، التي تُشع منها روحانيات بجانب المعرفة العلمية، لذلك بقيت النمطية القديمة هي الغالب على المتصور التاريخي، إلى غاية القرن الثاني للهجرة (الثامن ميلادي) وذلك بفعل موروث الأرض وحيزها التقليدي الضيق.

لكن احتكام الزمن إلى الجغرافيا الامبراطورية التي لبست عباءة الخلفية، أنتج براءة اختراع عند المسلمين تحاكي الزمن بزمنيات الفارق النبوي - لكن هذه المرة- بخلفيته المعرفية، لذلك باتت قوة الدولة الامبراطورية وامتدادها يغذيه النص التاريخي، كمقوم وجودي ودفاعات أممية، صانت

المنصف الفخاخ، موجز الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشييف الوطني التونسي، منشورات الأرشييف الوطني التونسي، تونس، 1990.

كراسات الأرشييف، وثائق من القرنين السادس عشر والسابع عشر، الأرشييف الوطني التونسي، 2009.
توفيق بن زرعة، الجزائر في القرن الثامن عشر من خلال دفاتر الأرشييف الوطني التونسي، دار ألفا دوك للطبع والنشر والتوزيع، قسنطينة، 2021.

لثلاثة عشر قرنا (من القرن الـ 02 للهجرة/08م إلى القرن 14 للهجرة/20م) ظاهرة السلطة الواسعة، التي تبذرت لاحقا بفعل التآكل الداخلي وزحف الحضارة الأوروبية بطلتها الفكرية والاستعمارية، حيث باتت الدولة الامبراطورية شتات ترابي تشع منه الوطنيات التي بقيت محافظة على آلية التاريخ كغذاء مقوم، كان قد تفكك بدوره من الكل الامبراطوري إلى الجزء الوطني، وقد نصل يوما ما مع ما نشهده من ذهنية منشطرة إلى التاريخ وأبناء العم.

مصادر ومراجع:

مصادر:

- البلاذري أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، دار الهلال، 1981، بيروت.
- ابن اياس الأزدي أبو زكريا يزيد، تاريخ الموصل، دار الكتب العلمية، 1982، بيروت.
- ابن خلدون عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون، دار الهدى للنشر والتوزيع، 2008، الجزائر.
- ابن الأثير علي ابن محمد، الكامل في التاريخ، بيت الأفكار الدولية، 2009، الرياض.
- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1961.
- ابن شبة عمر النميري، تاريخ المدينة المنورة، تقديم قاسم السامرائي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1999.
- ابن طيفور أبي الفضل احمد بن طاهر، كتاب بغداد، صححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، 1949.
- ابن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق ابراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989.
- الدينوري ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله، المعارف، دار المعارف، 2007، القاهرة.
- الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، العبر في خبر من غير، تحقيق أبوهاجر محمد بسيوني، دار الكتب العلمية، دت، بيروت.
- الطبري محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، 1960، القاهرة.
- العياشي عبد الله بن محمد، الرحلة العياشية 1661-1663، حققها وقدم لها سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، 2006

- المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعته كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، 2012، القاهرة.
- اليعقوبي أحمد ابن اسحاق، تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، الشركة الاعلامية للمطبوعات، 1993، لبنان.

مراجع:

- أمحزون محمد، منهج دراسة التاريخ الإسلامي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2010، القاهرة.
- توفيق بن زردة، الجزائر في القرن الثامن عشر من خلال دفاتر الأرشيف الوطني التونسي، دار ألفا دوك، 2021، الجزائر.
- توفيق بن زردة، حفريات حول السياسة الاستعمارية في الدول المغاربية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2022، الجزائر.
- حمادة محمد ماهر، دراسة وثائقية للتاريخ الإسلامي ومصادره من عهد بني أمية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر 40- 922 هـ، مؤسسة الرسالة، 1988، لبنان.
- العلياني السلمي محمد بن صامل، منهج كتابة التاريخ الإسلامي حتى نهاية القرن الثالث هجري، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، 1984، جامعة أم القرى.
- عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق، 2001، بيروت.
- عبد الهادي جمال، رفعت وفاء، منهج كتابة التاريخ الإسلامي، لماذا؟ وكيف؟، الوفاء للطباعة والنشر، 2005، القاهرة.
- فريد بك محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة محمد أفندي مصطفى بحوش، 1896، مصر.
- محمد محمد حسن شراب، في أصول تاريخ العرب الإسلامي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، 1992، دمشق.
- محمود الديب عبد العظيم، نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي، نظرات وتصويبات، دار البشير للنشر والتوزيع، د.ت.
- المدني أحمد توفيق، هذه هي الجزائر ويليه كتاب الجزائر، المجلد الثامن، دار عالم المعرفة، 2010، الجزائر.
- Charfi Abdelmadjid, L'islam entre le message et l'histoire, Edition Albin Michel, 2004